واشنطن تغتال العراق

البرابرة قادمون لارتكاب جريمة جديدة

. فيصل درّاج* .

بعد أكثر من عقد على ترويع العراق واستنزافه، قرّرت الولاياتُ المتحدة اليوم اغتيالَ العراق شعبًا وحكومةً وأرضًا وتاريخًا، كما لو أنّها ـ وقد فَرضتْ ذاتَها مشيئةً وحيدةً على سطح الأرض ـ تريد أن تعيد خلقَه من جديد. ولن تكون إعادةُ خلق العراق على الطريقة الأميركية إلاّ إعادةَ خلقٍ لمصائر المنطقة العربية بأسرها، بما يلبّي حاجتَيْن لا ثالثة لهما: حاجة الولايات المتحدة، وتلك المرتبطة بـ «الأمن الإسرائيليّ» ـ المعروفة والمجهولة في آن. وفي الحالين تقوم الولاياتُ المتحدة بوأد حاجات الشعب العربيّ وحقوقِه، مؤكّدةً أنّه شعبٌ زائدٌ لا حقوق له، وأنّ من حقّها أن تَزْرع حقوقَها القاتلة في مقابر الحقوق العربية.

جدل الصدق والقوّة

لا تُجْهد واشنطن ذاتَها في العثور على ما يبرّر اغتيالَ العراق. فإضافةً إلى الكُساح العربيّ الذي لا يَنْقضي، لديها تلك الحجّةُ الفاسدةُ والبغيضةُ في فسادها: «محاربةُ الإرهاب» بلغة كاذبة، أو «الدفاعُ عن الديموقراطية» بلغةٍ أكثرَ كذبًا. والكذب في السياسة الأميركية هو سيّدُ الفضائل، مادام كذبًا محصّنًا بأضخم آلة حربٍ في تاريخ البشرية، ومادام يمسّ «عالمًا عربيّاً أعزل.» فالحصار القاتل الذي تمارسه واشنطن منذ ١٢ عامًا ضدّ شعب العراق «فعلٌ ديموقراطيّ»؛ وتقتيلُ الفلسطينيين اليوميّ أمرٌ لا إرهاب فيه؛ وهذا الفساد الشاسع الذي يَخنق المجتمعَ الإنسانيّ تعبير عن معنى الديموقراطية في زمن النظام الأميركيّ الجديد. ولهذا تستطيع قاذفاتُ القنابل الأميركية أن تَسْتنبت الديموقراطيةَ في أفغانستان، وأن تفتّشَ عن بذور الديموقراطية في الصومال، وأن تَزْرع أفضلَ حبوب الديموقراطية في أرض يوغوسلافيا السابقة بعد أن تسوّي بيوتَها بالتراب. ولاستكمال هذه الديموقراطية التي لا تحتاج إلى برهان، قرّر الأميركيّون اغتيالَ العراق.

ليس غريبًا أن يكون الدكتور هنري كيسنجر صادقًا مرّةً واحدةً حين قال: «يستطيع القويُّ إن يكون كاذبًا حين يشاء.» لا يَصُوغ هذا الدبلوماسيّ الأميركيّ الشهير هنا مبدأً نظريّاً في السياسة، بقدْر ما يلخّص معنى السياسة في تاريخ الولايات المتحدة منذ أَنْ وطئ «رجلُ اللّه الأميركيّ» أراضيَ «الهنود الحمر» حتى اليوم. فإذا كان القويُّ صادقًا دائمًا بفضل قوّته، فإنّ الضعيف كاذبٌ باستمرار بسبب ضعفه. والصدق المقصود يتشخصن في الأساطيل والصواريخ وحاملات الطائرات، على خلاف الكذب الضعيف الذي يَسْتنجد بالاسترحام. يعيد كيسنجر في قوله خلقَ مبادئَ الأخلاق، بقدْر ما تعيد دولتُه خلقَ العراق من جديد، لا اعتمادًا على مبادئ القانون الدوليّ (الذي يوجَد ولا يوجَد)، بل اعتمادًا على غزارة النيران واصطياد المخلوقات الضعيفة. وبسبب جدل الصدق والقوّة، الذي يَكْتبه الصادقُ ـ القويُّ، لا يَرِث الفقراءُ شيئًا ويَحْصد الأقوياءُ حقوقَ الفقراء. وبسبب جدل الكذب والضعف ينبغي اغتيالُ شعب العراق.

هنود العصر

ربما أراد «رجلُ اللّه الأميركيّ» هذه المرّةَ أن يحرّر شعبَ العراق من آلامه، منتقلاً به من حال الاغتيال المجزّأ والمجزوء إلى اغتيالٍ كليٍّ مغايرٍ، أيْ من الترقّب اللعين إلى طمأنينة المقبرة. فبعد الحصار والتجويع والترويع وموتِ مئات الألوف

* ـ كاتب وناقد فلسطينيّ.

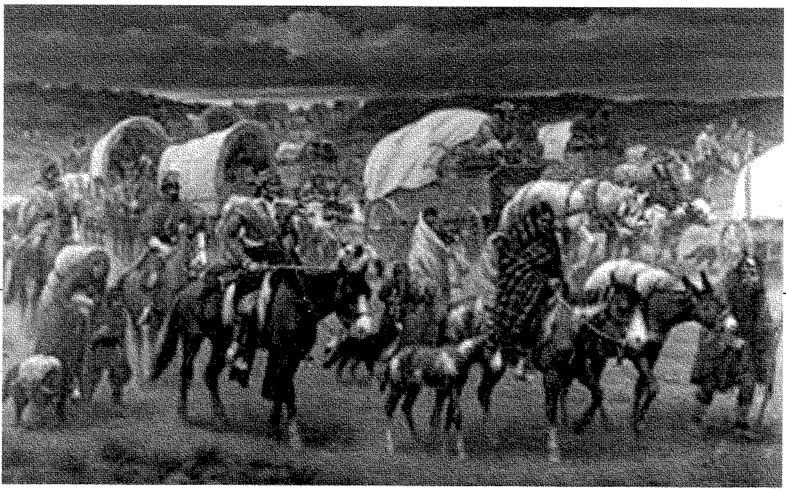

حين قال كيسنجر: «يستطيع القويّ أن يكون كاذبًا حين يشاء» كان يلخّص معنى السياسة في تاريخ الولايات المتحدة منذ أن وطئ «رجل الله الأميركيّ» أراضي «الهنود الحمر»

من نقص الأدوية، ومن سموم السلاح الأميركيّ في حرب الخليج الثانية، تقْترح واشنطن حلاً إنسانياً يُريحها من الشعب العراقيّ «اللعين» ويريح الشعبَ من آلامه. كتب حاكمُ ولاية كاليفورنيا إلى المجلس التشريعيّ، بعد أن استفزّه «الجنسُ الهنديُّ اللعينُ» عام ١٨٦٠، السطورَ التالية:

«إنّ الرجل الأبيض الذي يَعْتبر الوقتَ ذهبًا، ويَعْمل طول نهاره ليبني حياةً سعيدةً، لا يستطيع أن يَسْهر طوال الليل لمراقبة أملاكه... ولم يعد أمامه من خيار سوى أن يعتمد على حرب إبادة. إنّ حرب الإبادة قد بدأتْ فعلاً، ويجب الاستمرارُ فيها حتى يَنْقرض الجنسُ الهنديُّ تمامًا.»[١]

لقد كان الحاكمُ الأميركيُّ بيتر بيرنت صادقًا في قوله، وملتزمًا بوعده، ودقيقًا في تصريف «وقته الذهبيّ». فالأميركيّ الذي «يَسْهر طوال الليل لمراقبة أملاكه» استبقى، في مطلع القرن العشرين، مليونيْ هنديّ فقط من أصل ١١٢ مليونًا، معبِّرًا بذلك عن أمريْن: الصدقُ في القول، والمحافظةُ المجتهدة على «المُلْكية الخاصة.» وإذا كان النفطُ العراقيُّ هو «الوقتَ الذهبيّ» باللغة الأميركية، فإنّ الشعب العراقيّ هو الهنديُّ الجديد الذي يَعْبث بالممتلكات ويهدِّد مناجمَ الذهب. لذا ينبغي أن يُلْحق المتوحّشُ العراقيُّ بنظيره الهنديّ، حتى يُمضي الأميركيُّ سهرتَه رضيّاً، بلا كدر ولا قلق. وواقع الأمر أنّ حرب الإبادة ضدّ الشعب العراقيّ قد أعطت محصولاً جيّدًا أزْهق حياةَ مليونيْ عراقيّ على الأقلّ منذ بدء الحصار، دون أن تتحقّق السكينةُ الأميركيةُ المرجوّة. ومن أجل إنجازِ ما يجب إنجازُه حانت ساعةُ اغتيال الشعب العراقيّ دفعةً واحدة.

«لقد أعدْنا العراقَ إلى مرحلةٍ ما قبل التاريخ.» هذا ما صرّح به ديك تشيني بعد حرب الخليج الثانية. بيد أنّ الإدارة الأميركية، التي انتقلت من بوش الأب إلى بوش الابن، اكتشفتْ أنّ «العراقيّ المتوحّش» قادرٌ على الاستمرار في الحياة في شروطٍ ما قبل ـ تاريخية، وقادرٌ أيضًا على «العبث بأملاكٍ أميركية.» هذه القدرة العراقية أجبرتْ الإدارة الأميركية على اللجوء إلى حرب الإبادة القديمة، التي تحرِّر «العراقَ المتوحّش» من أهله ووحدته الجغرافية وآثاره العربية والإسلامية، وتحرِّره أيضًا من «أطياف النفط» القاتلة. هكذا يصبح العراقُ حرّاً وديموقراطيّاً ويعود إلى «التاريخ» من جديد، كما لو كان إحلالُ الديموقراطية في العراق يَسْتلزم بلدًا لا بشرَ فيه ولا حقوقَ له، يَذْهب أهلُه إلى باطن الأرض، إلى جوار النفط، كي يختلطوا به ويُغذّوا منابعَه ويَحْرسوا بصمتهم الأبديّ آبارَه الهائلة! لقد كان قائدُ القوات الأميركية في حرب الخليج الثانية صادقًا حين قال: «ما يهمُّنا هنا هو ما في باطن الأرض، لا ما هو فوقها.» ففي باطن الأرض ذهبٌ أسود، وما فوقها عربيٌّ شريرٌ بخسُ الثمن يُجْبر صاحبَ الوقت الذهبيّ على السهر على «أملاكه.»

أبلسةُ الآخر

أدمنت الإيديولوجيا الأميركيةُ الأصليةُ منذ أنْ وطئ «الروّادُ أرضَ كنعان الجديدة،» بلغة الأميركيين الخُلّص، الربطَ بين «الآخر» والشيطان، وبين «الأنا» المقدّسة والحقّ في مصادرة أموال الغير. في هذا التصوّر المخترع لا يكون الجشعُ سببَ قتل الآخر واغتصابِ حقوقه، وإنّما يأتي من الامتثال للإرادة الإلهية وارتهانًا بمشيئتها. وهذا ما جعل الكنيسةَ، التي رأت في «اكتشاف» أميركا انتصارًا للروح المسيحية، لا

١ ـ منير العكش، **حقّ التضحية بالآخر، أميركا وتاريخ الإبادات الجماعية**، ص ٣١.

تَعْترف بأنّ للهنود عقولاً وأرواحًا إلاّ عام ١٥٣٧، كما ذَكَرَ الأخلاقيُّ الكبير إدوار غاليانو في كتابه **اكتشاف أميركا الذي لم يقع**. واليوم يأمر البيتُ الأبيضُ بإرسال كنائس جاهزةِ الصنع إلى قواعده في الخليج، مؤكّدًا مرّةً أخرى أنّ العرب لا أرواح لهم ولا عقول، وأنّ دور أميركا «تعقيلُ» العراقيين و«ترويحُهم،» بشرط قتلهم أولاً، وتقسيمِ أرضهم بعد رحيلهم عنها.

تأتي أملاكُ الآخر، ثم تأتي صورتُه المخترعة لاحقًا، بما يبرِّر القتلَ وشرعيةَ المصادرة. في البدء كانت صورةُ الهنديّ الأحمر الذي استقرّ الشيطانُ في روحه: تَلَتْها بعد قرونٍ صورةُ الفيتناميّ القذر الذي لا يَعْرف أن يَمْسح أنفه؛ ثم أعقبتْها صورةُ الفلسطينيّ الإرهابيّ الذي يُلزم الإسرائيليين بـ «السهر على أملاكهم.» وواقع الأمر أنّ أبلسة الآخر قانونٌ ثابتٌ في الإيديولوجيا السلطوية الأميركية يَكْشف غربة «المتطهّر الأميركيّ» عن آخرين مثقلين بالدنس، وعن «إرهابيين» أَوْكل اللّهُ إليه تأديبَهم كي تظلّ الأرضُ طاهرةً نقيةً.

فقد كان جمال عبد الناصر شيطانًا رجيمًا، فأَدّبته الولاياتُ المتحدة في حرب ١٩٦٧. وعاقبتْ واشنطن النظامَ الليبيّ حين قصفتْه بالطائرات عام ١٩٨٦. وأعادت أبلسةَ السودان في عام ١٩٩٧. إلى أن عثرتْ على إبليسها الأكبر في النظام العراقيّ، تاركةً وكيلَ الرحمن الصهيونيّ يغتال الأطفالَ والرجالَ والنساءَ والأشجارَ والسماوات في فلسطين. وبسبب إخلاصٍ متفانٍ في محاربة الشياطين وأعداء المسيح، قامت الولايات المتحدة بقلب نظام سوكارنو في مطلع ستينيّات القرن الماضي، وجاءت بسوهارتو بديلاً منه، فقَتَلَ عشرةَ ملايين وأصبح الحاكمَ الأكثرَ فسادًا في تاريخ أندونيسيا الحديث. وجاءت «هيئةُ الأربعين» التي كان يرأسها كيسنجر، في منتصف سبعينيّات القرن الماضي، بالدكتاتور پينوشيه بديلاً من اللندي الذي وَصَل إلى السلطة بشكل ديموقراطيّ حقيقيّ. والتزم البيتُ الأبيض، لاحقًا، الدفاعَ عن ديكتاتور نيكاراغوا «سوموزا» وإسقاطَ النظام الوطنيّ الديموقراطيّ الذي أَعْقبه، بعد أن دَمَّرَ «مقاتلو الحرية،» بلغة الرئيس ريغن، السدودَ والحقولَ والبيوتَ وكلَّ ما يمتّ إلى «حقوق الإنسان» بصلة. ولم يكن التزامُهم أقلَّ بشاهِ إيران الراحل، الذي أَنْتج الساڤاك، أحدَ أكثر أجهزة القمع والترويع شهرةً في الشرق الأوسط. ومن هنا يبدو غريبًا الغرابةَ كلَّها أن تَرْبط أميركا بين اغتيال العراق وتحقيقِ نظامٍ ديموقراطيّ فيه: ذلك أنّ تاريخها الاستعماريّ هو، على العكس ممّا تدّعيه، تاريخُ إسقاط الأنظمة الوطنية واستجلاب أنظمة ديكتاتورية فاسدة تابعة تؤمِّن المصالحَ الأميركيةَ وتَهْدر حقوقَ شعوبها.

المثقفون العرب «المجدِّدون»

من الغرابة إلى تخوم الفضيحة أيضًا أن يأتي مثقفون عرب، لا تَنْقص الجديةُ بعضَهم، بمعادلاتٍ فكريةٍ متأمركةِ النزوع والتأويل تقول ـ وإنْ ضمنًا ـ بأطروحتيْن.

الأولى هي أنّ إسقاط النظام العراقيّ بأدواتِ دمارٍ أميركيةٍ مدخلٌ إلى تحرير الشعب العراقيّ، إنْ لم يكن مَدْخلاً إلى تحرير جميع شعوب المنطقة... وكأنّ الولايات المتحدة، التي تَضْطهد بثباتٍ شعوبَ أميركا اللاتينية منذ قرنيْن من الزمن، هي الرسول المنتظر الذي يأخذ بيد العرب إلى المجتمعات المدنية. إنّ هؤلاء المثقفين العرب ينسون مبادئَ الكرامة الوطنية في أكثر أشكالها بساطةً حين يَرْتضون بمبدإ الاحتلال الأجنبيّ مَدْخلاً إلى الديموقراطية المرجوّة، متجاهلين أغراضَ التدخّل وأدواتِه وأهدافَه، وكأنّ الولايات المتحدة جامعةٌ عربيةٌ نموذجيةٌ يُصلح بها العربيُّ

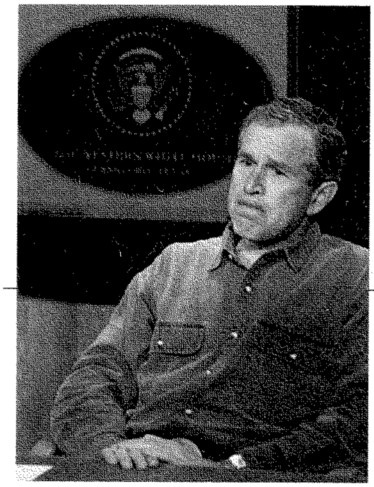

بعض المثقفين يساوون بين إيقاف اغتيال الشعب العراقيّ واستقالة الرئيس العراقي، وكأنّ واشنطن معارضة داخلية عراقية من حقّها أن تطالب رئيس البلاد بالتنحّي!

الديموقراطيُّ عيوبَ عربيٍّ آخر لا يَعْرف الديموقراطية.

وأما الأطروحة **الثانية** التي يَرْتكز إليها هؤلاء المثقفون فمستندةٌ إلى معادلة ساخرة تساوي بين إيقاف اغتيال الشعب العراقيّ واستقالةِ الرئيس العراقيّ، وكأنّ واشنطن معارضةٌ داخليةٌ عراقيةٌ من حقّها أن تطالب رئيسَ البلاد بالتنحّي والخروج!

والحال أنّ هؤلاء المثقفين الذين يَنْتمون إلى «الليبرالية الجديدة» يستأنفون هنا اجتهادَهم النجيبَ السابقَ الذي دان، ولايزال، «العنفَ المتبادلَ» في فلسطين، حيث المخيَّمُ الفقيرُ الأعزلُ يساوي آلةَ شارون الإجرامية. وإذا كان مبدأُ «الطرفيْن المتقاتليْن» في فلسطين هو المدخلَ النموذجيَّ لتبرير جميع جرائم إسرائيل «التي تَردّ على العنف بالعنف،» فإنّه، في حال العراق، البوابةُ الكبرى لتسويغ جميع الجرائم الأميركية، بعد أن نَصَّبَ مثقفو الليبرالية الجديدة واشنطن معارضةً عراقيةً داخليةً شرعيةً يَنْبغي على النظام العراقيّ أن يَنْصاع لأوامرها فيَحْملَ متاعَه ويَرْحل.

وواقع الأمر أنّ بعض هؤلاء المثقفين «المجدِّدين» أدْمن ما أدْمنه منذ ولادة «النظام الأميركيّ الجديد» لأسبابٍ معروفةٍ وغيرِ معروفة. فقد احتفَوْا بسقوط الإيديولوجيات الشمولية التي انتموا إليها حين كانت تلبّي مصالحَهم. واحتفَوْا أكثر باتفاق أوسلو و«تحقُّقِ» السلام الفلسطينيّ ـ الإسرائيليّ. ودخلوا أحيانًا في سراديب من الكلمات المتقاطعة: فرفضوا الاتفاقَ المذكور ولكنّهم روَّجوا للحوار العربيّ ـ الإسرائيليّ؛ واستنكروا هذا الاتفاقَ لكنّهم أثنَوْا على «شجاعة» السلطة الفلسطينية؛ أو قبلوا بالاتفاق والحوار ولكنّهم ندّدوا بفساد السلطة الفلسطينية وديكتاتوريتها! كل شيء حيث أراده الاجتهادُ الموسميُّ، وكلُّ اجتهاد حيث تشاؤه الظروف، وليس من شيء واضح إلاّ تبريرُ ما لا يجب تبريرُه، بعد أن جعل المثقفُ من ذاته «قارةً مستقلّةً» وبنى لها سياسةً تبدأ بالقارة المفترضة وتنتهي بها.

في مواقف بعض هؤلاء المثقفين ما يثير العجب. فهم يتحدّثون عن الاستبداد والديكتاتورية، قاصدين ـ فقط ـ النظامَ العراقيّ. ويتحدّثون عن الديموقراطية، متطلّعين ـ فقط ـ إلى الإدارة الأميركية. لكنّ معظم الناس الذين لا يَحْتكرون اللغةَ ولا يُحْسنون تزييفَها يَعْلمون أنّ هدف الولايات المتحدة هو وضع اليد على منابع النفط الهائلة في العراق، بعد أن وَضعتْ يدَها على نفط الخليج وآبار النفط في منطقة بحر قزوين وأطرافِ الاتحاد السوفييتيّ السابق، في انتظار أن تضع يدَها على منابع أخرى محتملة في الصومال وأفريقيا. ويَعلمون أيضًا أنّ الهدف من احتكار النفط هو التحكُّمُ بأسعاره عالميّاً عبر التحكّم بالصناعة في أوروبا واليابان وغيرهما: ولعلّ العملَ الأميركيّ المبكِّر على محاصرة اليورو والاقتصاد الأوروبيّ هو ما يَشْرح الموقفَ الفرنسيَّ ـ الألمانيَّ، الذي يتّفق معه بعضُ العرب ويرى فيه بعضٌ آخرُ تعويقًا لـ «الحلّ النهائيّ» ودعمًا لـ «الإرهاب العراقيّ.» كما أنّ عراقًا جديدًا على الطريقة الأميركية يَنْبغي أن يبارك «عمليةَ السلام،» وأن يَفْتح صفحةً جديدةً بين النظام الإسرائيليّ وشعوب المنطقة، إنْ لم يحرِّر إسرائيلَ من الكابوس الفلسطينيّ ويريحها من فائض سكانيّ مُشاغب قد يساعد العراق على «توازن طائفيّ.» وما سياسة شارون اليوميّة، التي تحوّل الحياةَ الفلسطينيةَ إلى جحيم متوالدٍ، إلاّ المقدمة الضرورية التي عليها أن تُقْنع الفلسطينيين بأنّه قد آن الأوان للرحيل إلى العراق، حيث يَخْضعون لزومًا لاضطهاد من نوع جديد.

كل الأشياء تتداعى

لا شيء يقال عن وضع عربيّ مزر يتنافس فيه العجز السلطويّ والعجزُ الشعبيّ. وربما تكون هذه هي المرةَ الأولى، بعد مؤتمر القمة العربيّ الأخير، التي يَسْتظهر فيها الهوانُ العربيُّ على المستوى الرسميّ والمستوى الشعبيّ، باستثناء «إدارات» قليلة تفتدي بأرواحها «الديموقراطيةَ الأميركيةَ.»

في مكانٍ ما، يتحدّث نجيب محفوظ عن غياب معنى التاريخ؛ ذلك أنّ البشر يتذكّرون دروسَه بعد فوات الأوان. و«الفوات التاريخيّ» في العالم العربيّ كثيفُ البنى ومتوالدُ الجذور، منذ أن قرّرت السلطاتُ أن ترى في شعوبها عدواً، وقرّرت الدولُ العربيةُ أن ترى المصالحَ الأجنبيةَ وأن تهمِّش مصالحَها العربية الموحّدة إلى الحدّ الأدنى. وقد يَسْخر التاريخُ من العرب المسلمين الذين وَضعوا أموالَهم الهائلةَ في خدمة سباق التسلّح الأميركيّ الذي أسقط الاتحادَ السوفييتيّ. وقد يضاعف التاريخُ من الهُزْء والبهدلة حين يتذكّر «جحافلَ المسلمين» التي نَصَرتْ «أميركا المؤمنةَ» في حربها على «الإلحاد الشيوعيّ في أفغانستان.» وقد يَخْرج عن طوره وهو يستمع إلى فتوى جديدة ترى في «الدعاء الشفهيّ» على إسرائيل معصيةً تتنكّب عن الطريق السويّ وتَنْحدر إلى الضلال. كلُّ شيء يتداعى، كما لو كانت هذه الأمة، التي وصلتْ إلى حدود الصين وبلاد الغال ذاتَ مرة، أمةً من ورق، تَنْحدر من سقوطٍ آخر، بلا مشاريع ولا اقتراحات جديدة بنّاءة... إلاّ اقتراحاتٍ سعيدة تَحْذف من الإسلام ركنَ الجهاد، وتضع فلسطينَ والعراقَ خارج ديار الأمة الإسلامية.

في زمن مضى، شدّد القائدُ الشيوعيُّ الراحل لويجي بيرلنغوير على العلاقة بين الأخلاق والسياسة، مؤكّدًا أنْ لا سياسةَ بلا أخلاق، ولا أخلاقَ إلاّ بمنظور يَهْجس بارتقاء الإنسان، معاشًا وثقافة وقيمًا. فإذا كانت الأنظمة العربية قد أَقْلعتْ عن ممارسة السياسة منذ أن جعلتْ من الفساد والتبعية أو كليْهما نهجًا سلطويّاً وحيدًا، فإنّ الولايات المتحدة جَعلتْ من لاأخلاقية السياسة نهجًا كونيّاً يُثْني على شارون وشاه إيران وسوموزا وبيرلسكوني وسوهارتو ويلتسين، ويهدِّد مَنْ لا يَرضخ لسياسة المصالح الأميركية بصفاتٍ جاهزةٍ، عناصرُها: الإرهابُ، والشموليةُ، وخرقُ حقوق الإنسان. لكنْ لا شيء يقال عن بغداد التي يغتالها اليومَ البرابرةُ، بعد أن تُركتْ لأقدارها الحزينة منذ اثني عشر عامًا، تعاني الحصارَ والجوعَ والموتَ البطيء، شأنَ القدس المقدَّسة التي أصبحتْ «عاصمةَ إسرائيل إلى الأبد.» لا شيء يقال عن عاصمة الرشيد والمأمون، التي تَنتظر حاكمًا عسكريّاً أميركيّاً يَسْتبدل بالكلام العربيّ قنابلَ طائشةً... وأخرى «ذكية.»

دمشق